**المحاضرة السابعة**: **الحكاية الشعبية المفهوم والمميزات.**

**الدكتورة : مشقوق هنية**

**تمهيد:**

الحكاية الشعبية شكل من أشكال المرويات الشعبية التي عرفتها الإنسانية منذ القدم ، وهي جملة من التعابير اللغوية ، تتناول مجموعة من الأفعال حدثت أو يفترض أنها حدثت في زمن ما ، وتجنح إلى التعبير عن قضايا الإنسان وانشغالاته التي يستقيها من واقعه المعيش حينا ، أو من خياله حينا آخر حيث يتصور بأنها – أي الحكاية - ما هي سوى محاكاة لواقع ذهني مفترض الوقوع أو استرجاع لما قد وقع " ...كما تتميز الحكاية الشعبية بأنها تصوير للحياة الواقعية بأسلوب واقعي 1."

وقد يعجز عقل الإنسان عن تفكيك وتحليل هذه الأمور وتحقيقها في أرض الواقع " فيحيلها إلى عالم الخيال في أحيان أخرى كتلك القضايا المتعلقة بالخير والعدل والكرامة والحرية ، ومع هذا تبقى الحرية والكرامة هدفا إنسانيا تناضل الشعوب من أجل تحقيقه ولو صورة أحلام مثالية 2." ، وكانت الحكاية الشعبية - ولاتزال - ذات شأن عظيم ومكانة أسمى في آداب الأمم قديما وحديثا ؛ فقد ارتبط منشأها بمنشأ الإنسان ووجوده ، وراحت تتطور و تتفاعل معه مواكبة طابع البيئة المحيطة به ، و إذ تعد نتاج معتقدات وعادات و عواطف الناس ، منذ أزمنة قديمة ، و تعود جذوره إلى خبرات طويلة للشعوب ، ويرتبط بأفكار وموضوعات وتجارب متعلقة بحياة الإنسان ، أينما وجد ومن الصعوبة بمكان تحديد تاریخ معين لظهور الحكاية الشعبية ، حيث تعود جذورها إلى الحضارات القديمة ؛ كحضارة اليونان وبلاد الرافدين، و شرق آسيا ... وغيرها ، وظلت الشعوب تتناقلها شفاها وتدوینا خلال المراحل التاريخية المتعاقبة .

**مفهوم الحكاية الشعبية وتعريفها :**

يعرفها " أحمد رشدي صالح " على أنها : " فن القول التلقائي العريق ، المتداول بالفعل ، المتوارث جيلا بعد جيل ، المرتبط بالعادات والتقاليد ، و الحكاية هي العمود الفقري في التراث الشعبي ، وهي التي نطلق عليها مجازا الأدب الشعبي 3." و يعرفها " هادي نعمان الهيتي " بأنها : " نوع قصصي ليس له مؤلف ؛ لأنه حاصل ضرب عدد كبير من ألوان السرد القصصي الشفهي ، الذي يضفي عليه الرواة ، أو يحررون منه و هو يعبر عن جوانب من شخصية الجماعة ..وهي ترتبط بأفكار و أزمنة و موضوعات وتجارب إنسانية ذات علاقة بحياة الإنسان ... وظهرت الحكايات الشعبية المروية قبل عصر التاريخ بآماد بعيدة ، وظلت الشعوب تتناقلها جيلا عن جبل ، وبذا احتلت موقع الصدارة بين الفنون التي تذوقها

الإنسان ، وعبر فيها عن عواطفه و أفكاره وخيالاته ونظراته ، لذا فهي تفصح - إلى حد ما - عن مضمون العاطفة و الفكر والخيال و الرؤيا ، وليس بالوسع تصور شعب لا حكايات شعبية له". يقوم بروايتها راو، يوجه روايته - أي رواية الأحداث - إلى مستمع أو مجموعة من المستمعين، فهي لا تتحقق إلا بوجود عناصر ثلاثة على مستوى الفعل الحقيقي: " راو" - سارد - ، " رواية " مسرود - "مروي له " - مسرود له - أو بتعبير آخر : " مرسل " ، " رسالة "، " مستقبل ". هذا فيما يتعلق بالفعل " فعل الرواية " أما من حيث الرسالة أو " المسرود " فهي موجودة قبل " الراوي" ، و" المروي له" لأن الحكاية نص موروث يستدعي من الزمن التاريخي ، الزمن السابق لفعل الرواية ، لأن عالم الحكاية ، له زمنه الذي هو زمن متخيل ، أو هو زمن يحمل جزءا من الواقعية التاريخية المعيشة في زمن ما ، فهو زمن يناقض زمن الواقع الاجتماعي المروي فيه النص ، لأنه لا يحكي واقعا آنيا ، ولكن يسقط الآنية على الماضية لمحاولة إنتاج واقع جديد . من هنا يمكن أن نميز بين زمن القص ، وهو زمن الحاضر الروائي و الحاضر الذي ينتمي فيه السرد ، وزمن الواقع وهو زمن ما تحكي عنه الرواية ينفتح في اتجاه الماضي ، و يمكن القول أن النص المروي اكتسب بعد منشئه صفة الصيرورة الدائمة ، الملاحقة لديمومة الزمن.

**إن الزمن داخل الحكاية زمنان:**

زمن خارجي يقاس بالنمو الفكري الذي يولده السامع خلال تعاقب الأحداث و الأماكن والعقبات ، وهو زمن نفسي ينمو حينما يكون السامع في حال من المقارنة بين وقائع شبه تاريخية ووقائع تسرد أمامه عن طريق الحكي غير المجسد ، ومثل هذا الزمن يتسع و يضيق ، يشمل حالات كثيرة أو يقتصر على حال واحدة وغالبا ما يكون خاضعا لمواصفات الحدث الواقعي رغم إشباعه بالخيال ، وكذلك لا حدود واضحة لأبعاد هذا الزمن و لا تستطيع تحديده لأنه متعدد بعدد قراء الحكاية ، وبعد المستمعين لها .

زمن ثان داخلي ؛ ويترتب من خلال الحلقات الدائرية الصغيرة التي يولدها فن السرد ، ثم هذا التتابع في نمو الأحداث وفي نمو الشخصيات ، وهو زمن لا يخضع لحكم خارجي أو مقولات فلسفية بقدر ما يتحدد بأفعال القص، وما إذا كانت تتصل بالحاضر حيث نجد أن بداية الحكاية غالبا ما تكون بالماضي " كان يا ما كان... " ثم يتحول الزمن داخل بنية الحكاية إلى الحاضر ، ويمثل هذه الانتقالية الزمنية يتداخل في بنائها فعلا : " الحاضر " و " الماضي " دون أن تختص بواحد منهما ،فالحكاية ذات زمن متعدد نابض ، حي ، ومستقر ؛ ولذلك فهي دائمة الحضور ، تستطيع أن تستوعب حتى الجديد في الحياة دون أن يختل بناؤها الخاص"5.

والحكاية الشعبية المروية منها و المدونة تعد ميدانا خصبا ، يعترف بوجوده الكثير ككيان مستقل بذاته عن بقية الفنون الأخرى. كما أنها تقدم لنا تصورا عن واقع معيشي يحاكي الواقع الذهني المفترض وقوعه أو هي استرجاع لما قد تم وقوعه، وهذا ما يؤكده صفوت كمال : " كما تتميز الحكاية الشعبية بأنها تطوير الحياة الواقعية بأسلوب واقعي "6، ولعل هذا التطور الذي ينجم عن اصطلاح الحكاية الفضفاض الذي يستوعب ذلك الحشد الكبير من السرد القصصي الذي تراكم عبر أجيال ليعبر عن واقع ، عن أسلوب حياة ، عن شعب انبثقت من عصارة تجاربه وحاكت أيامه وأهم وقائع زمانه والأزمان التي تمنى العيش فيها أو وصلته أخبارها ، هي قديمة إذا قدم تواجد هذا الإنسان ، - وتلك إحدى خصائصها وقدم العهد به ؛ فقد توارثتها الشعوب والأمم عبر الحقب الزمنية المتتالية ، لتصل إليها من مختلف الأجناس و الحضارات و الأمم ، فهي بهذا من إنتاج الذاكرة الشعبية ، لذلك كثيرا ما نجد تطابقات أو تشابهات

حاصلة على مستوى الأحداث العامة للحكايات نفسها ، في أحداث هذه الحكاية يمكن أن تشابه أحداث الحكاية الأخرى. ونصل في النهاية إلى استنتاج هام هو أن الحكاية الشعبية منذ قديم الأزل ، ثم تناقلتها الشعوب ، فارتبطت بالمؤثرات الخيالية ، و أصبحت تشكل جانبا مهما في حياة الشعوب ؛ ثم أن هذه الأحداث العجيبة و الغريبة المسلية حينا والمعبرة عن أخلاق سامية نستشفها من خلال أحداث ووقائع الحكاية ونتعلم من شخوصها ، أنتجها و أبدعها الخيال الشعبي وتناقلتها عن طريق الرواية الشفوية ، فضمنت لها البقاء و الانتقال من مكان لآخر إضافة إلى كونها مدعاة إلى الاستمتاع والإطراب. والعبرة التي تظل دائما رسالة هامة من الأجداد إلى الأحفاد فهي "...تحوي ما تحويه من أفكار ذات قيم إنسانية أو وصايا مستمرة في أحداثها ، وتبقى هذه الأساطير تتناقلها الأجيال"7، وهي إضافة إلى كونها تحوي أفكار قيمة تعالج فيها قيما إنسانية راقية يحتاج إليها البشر ، وتحمل في طياتها وصايا مهمة تركها الأجداد للأحفاد، وتكاد تكون من مصادرها الملهمة واحدة ، إذ تتقارب فيها الأفكار ، وتتشابه المواضيع ، وتتوحد المقاصد و الغايات التروي أحداث قد لا تتفق مع الواقع المعقول ، أو أنها تروي حياة أبطال ذوي قوى خارقة ، وتجسد لنا أقاصيص تعالج أفكار و معان جدا بسيطة ، و أكثر من ذلك ساذجة :" ... تكاد تكون وكأنها من مصدر ملهم واحد، و إن اختلفت فيها الأسماء و الأحداث، فهي أفكار متقاربة؛ والأساطير ليست بالضرورة أقاصيص تحتوي أحداث غريبة لا تتفق مع المعقول أو تحكي عن أبطال ذوي قوى خارقة... بل هي تحوي أحداث بسيطة أو أفكار ساذجة بدأت بحكاية حبكتها فريحة أحد أبناء الأجيال القديمة ، وما فكر حين ألقاه عن عفو خاطر ... أو تلقائية طبيعية و أن الألسنة قد تنقلها أو تطورها، وتبقى حية في أذهان السامعين وتتحدى كل التغيرات. "8

قد يكون من بين أهم المقومات التي تستند عليها الحكاية الشعبية هي عمل الحكواتي أو الراوي الذي استوعب الحياة وفهمها من خلال استخدامهم لها في بعدها الإبداعي ، واستغلالهم لمواهبهم القصصية مدعومة بخصائص الحكاية وميزاتها في تدعيم التعليم للكبار والصغار عن طريق التلقين ، ولأن الأدب يحمل الرسالة ذات هدف ومعنى، وهو أدب وفن جعل العالم يقف مبهورا أمام قدراتهم وتمكنهم من تقديم عصارة تجاربهم في الحياة ، و الإفصاح عن أخلاقيات و عن معتقدات ومواصفات عالية المقاصد و الشيم في شكل أدبي راق، ومع توافرها - أي الحكاية الشعبية - على كل مقومات النص الحديث ؛ من استهلال ، ومتن ، وخاتمة ، إلى أحداث ، وتعقيد وشخوص ، كلها تنصهر في بوتقة الخصوصية الشفهية العفوية ؛ التي تلبس الحكاية الشعبية خواص المجتمع الشعبي ، سواء تعلق الأمر بالأخلاق ، المعتقدات أو العادات و التقاليد، ومن هنا ترافق تغيراته النفسية والاجتماعية وتؤثر فيها ، هذا ما جعلها محط اهتمام الباحثين في علم النفس والاجتماع ، الأدب الشعبي والأنثروبولوجيا لذلك يعرفه " محمد سعيدي"

على أنها: " محاولة استرجاع الأحداث بطريقة خاصة ممزوجة بعناصر كالخيال و الخوارق و العجائب ذات طابع جمالي تأثيري نفسيا واجتماعيا و ثقافيا."9 خصائص ومميزات الحكاية الشعبية: هناك فروقات بينة واضحة بين الأجناس الأدبية الفنية سواء في الأدب الفصيح - أي الرسمي - أو بين أنواعه في الأدب الشعبي ، غير أن أهم فرق بينهما كان الأدب الشعبي لا يفرق بين القصة الشعبية كجنس أدبي أو الحكاية الشعبية عكس الطرح الذي يقدمه الأدب الفصيح : " فالحكاية تشمل كل من القصة والقصص بل هي تحويها ، والقصة عموما حكاية و الحكاية خصوصا : أن يروي إنسان للآخرين ما رأي أو سمع أو تصور."10، الحكاية عموما هي سرد قصصي لذلك فالمصطلح في حد ذاته يغطي مدى واسعا من المواد و الأجناس والأنواع فقد نطلقها على قصص الجان والعفاريت ، كما يمكن

أن تطلق على بعض الأساطير أو حتى أنها تعتبر قصص ألف ليلة وليلة وهي مجموعة ذائعة الشهرة حكايات شعبية ؛ وبالتالي الأمر لا يختلف هنا على اعتبار أن الحكاية يمكن إطلاقها على القصة أيضا وهذا في الأدب الشعبي فحسب ؛ وهي من أبرز ميزاته وخصائصه، وهذا ما أكده معجم "لونغمان" وهو من المعاجم الإنجليزية الحديثة ، يعرف الحكاية بأنها : " قصة قصيرة تقليدية تعلم درسا أخلاقيا ، وخاصة عن الحيوانات"11. فالحكاية الشعبية لأنها ترتبط بمخيال الشعب إبداعا وخلقا وسردا ؛ فإنها تتسم أيضا بكونها تعبر عن مميزات البيئة التي تنتمي إليها إن على المستوى اللغوي " اللهجة" أو على مستويات فنية و أدبية أخرى.

**مميزاتها:**

**- جهل المبدع الحقيقي :**

لا تعطي الحكاية الشعبية الأهمية لمبدعها أو منتجها ، ذلك أن القيمة الحقيقية التي تلبستها عبر العصور ، كون هذا الإبداع أصبح ملكا حقيقيا للذاكرة الشعبية ؛ حيث تناسي المجتمع صاحبها الأول واعتبر الجماعة الشعبية ، والفكر الشعبي هما الرائد الأول لهذا الفن رغم أن الانبثاقة الأولى لشخص فرد أبدع فأثر في الجماعة

غير أن : " المبدع الشعبي منسلخ عن ذاتيته الفردية هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن جماعية الأدب الشعبي تتمثل في مشاركة كل واحد في الإنتاج ، حيث لا يبقى هذا الإنتاج على صورته الأولى فبمجرد أن ينتهي المبدع من عمله تحتضنه الجماعة بالزيادة أو النقصان ".12، ولعل التحليل النفسي فصل في هذه القضية بحيث يعتبر انتقال الرواية - أي سرد أحداث الحكاية - من فم إلى فم يؤدي حتما إلى إنتاج نص جدید مخالف للنص الأصلي ؛ وبالتالي تتنوع الروايات المختلفة للنص الأصلي الأول، وهذا أيضا ما ينجم عنه صعوبة في معرفة أصل العمل أي مكانه وصاحبه أو حتى زمانه ، وهي خاصية من خصائصه مسألة الارتقاء فوق عاملي الزمان والمكان ، ولعلنا ندرك تمام الإدراك بأن الحكاية الشعبية هي إرث شعبي جمعي لا يحق لأي شخص فرد أن ينسبه لنفسه.

**- العراقة والقدم:**

عراقة الحكاية الشعبية وإيغالها في الزمن البعيد يجعلها تراثية ، قديمة غير مبتكرة ، ولا مستحدثة ، أو مبتكرة ، ولا هي فن طارئ مفبرك على السريع ؛ بل هي عمل عتيق ، وفن ميق قديم قدم تواجد الإنسان نفسه على هذه المعمورة ، ولا يمكن أن نحدد لها زمنا أو وقتا معينا سوى أنها انبثقت قديما من الذاكرة الشعبية ، حيث تكونت لديها الرغبة في رواية المغامرات و الأحداث التي كانت ترافق الإنسان في حياته اليومية ، و أثناء رحلته في البحث المتواصل على حاجياته و متطلباته ، من مأكل وملبس ... وغيرها ، إلى أن أصبح مجددا مبدعا ، متفننا فيها. هي باختصار شديد، وبإطراء كبير من أقدر الأجناس الأدبية وأنواعها على الهجرة عبر الزمن، والارتقاء عبر الزمان والمكان لتلاقي جمهورها ومحبيها بالشغف نفسه وبالإقبال نفسه الذي تلقاها فيه الإنسان الأول، لذلك فهي تتماها في الزمن وفي التاريخ و عبر تعاقب الحضارات و الأمم. فهي أداة يسر لفهم هذا العالم وديمومته ، وترجع بنا الحكاية إلى : " عصور تسبق كل تاریخ مدون ، كما أنها ترجع بنا إلى بداية الفن الشعري ، و إلى عالم آخر من الفكر و الاعتقاد و الحق و الدين ..."13. - -- **المشافهة والانتقال:|**

تنتقل الحكاية الشعبية مشافهة بحكم طابعها الذي يميزها عن الأدب الرسمي، أوالفصيح الذي ينبغي اله التدوين، وهي ذات الطابع الشفاهي، من شخص لآخر ؛ هذا الذي من شأنه أن يولد لدينا خاصية جديدة ألا وهي :

**- المرونة والتغيير:**

تنتقل الحكاية من فم لفم ، ومن شخص لأخر وهذا ما يجعلها مرنة تتغير بفعل الزيادة والنقصان ، أو حتى التغيير في مضمون الحكايات ؛ وهذا ما يجعلها تتطور ، وتخضع لتغيير يمنحها صفة الرقي و التطور ، كما يضفي عليها نوعا من الرشاقة الأدبية ؛ هذا الأخير الذي ينجم تبعا لمستحدثات تطرأ على راويها أو ما يحيط به وبمجتمعه وبيئته ، وبكل ما يؤثر فيه لأنها تعد مطلبا نفسيا بغض النظر عن اتجاهاتها. هي تخضع لجدلية الزمن في تغييره ، و لأنها تهاجر وتسافر ولا تبقى محصورة في مكان واحد ولا في زمن معين فهي مرنة متغيرة، فمهما ظلت هذه الحكاية واحدة في عمومها فإن كل شعب يحكيها - رغم ذلك - : " بطريقة مختلفة ، بل إننا في عصرنا الحاضر نحكيها كذلك بطريقة مختلفة ، وربما أدت محاولة استنباط وجوه الاختلاف البارزة في حكايات شعبين من الشعوب ، الفرنسي و الألماني مثلا ، تمهيدا لإبراز المعالم المختلفة لشخصية كل شعب... "14 - الطول والقصر: تعالج الحكاية الشعبية موضوعات كثيرة، وفي الوقت نفسه مختلفة فمنها البطولي ، ومنها الأسطوري ، ومنها الخرافي ، والحيواني أو المسلية منها ، والنادرة ...؛ هذا الذي يحدد حجمها طولها وقصرها وعلى هذا الأساس ترد في أحجام متنوعة أيضا ، فهي حينا طويلة جدا لأن بنائها مركب قد تعالج الكثير من القضايا فتستعمل أكثر من مغامرة للتوضيح والتحليل والتفسير فقد تكون قصة بطولية أو سيرة شعبية وبالتالي تستدعي الطول لأن البطولة مغامرة في المجهول وبالتالي تتطلب الطول مثلها مثل الحكاية الأسطورية ، ومنها الخرافية التي تتراوح بين الطول والقصر مثل كليلة ودمنة أو مثل حكاية الغراب والثعلب القصيرة جدا ، لكن مدلولاتها ومعانيها كثيرة ، ومنها الطويلة مثل قصص ألف ليلة وليلة ، لذلك لا نستطيع الحكم في القصص الشعبي حكما قطعيا على حجم الحكاية ذلك أنه يتنوع بتنوع أحداثها وأبنيتها المختلفة كالبناء الدائري ، والبناء الدائري المزدوج، والبناء المفتوح ، والبناء القابع ، والبناء الارتدادي هذه الأبنية التي من شأنها تحديد حجم الحكاية بأنواعها المختلفة ؛ والتي ترجع لتصنيفات الدارسين والباحثين في المجال ، وعلى هذا الأساس أيضا تمتزج بعض الحكايات في أحداثها معا وتتشابه الأحداث أو تتكرر.

المراجع :

* محمد عيلان محاضرات في الأدب الشعبي.
* كاهية باية محاضرات في الأدب الشعبي.
* عبد الحميد بورايو البعد الاجتماعي والنفسي في الأدب الشعبي.